

اسبوعان في المغرب الاقصى

اشد البرد في بلاد الانكليز في اواخر ديسمبر فانهزت الفرصة لزيارة المغرب الاقصى وهو لا يبعد عن إنجلترا اكثر من خمسة ايام في البحر ويومين ونصف يوم بطريق فرنسا واسبانيا . اما انما فاخذت طريق البحر ولولا امواج خليج بسكاي لهدم السفرة فسمعة لا تقاوم

(١) افكار نيشيه

رست الباشرة على جبل طارق وقد تسلطت علي الافكار فرأت نفسي حاكماً قبل النظر ومشتاقاً على غير عيان . لماذا اقترض الاسترالي امام الانجليزي ولماذا اصبح التاجر المصري صغراً امام التاجر الاجنبي لان ليس فيهما صفة لبقاء . من الصفات البقائية في بعض السمك ان يكون شتلاً حتى لا يراه عدوه ويأكله ومن الصفات البقائية لبعض النباتات ان تكون مرة المذاق حتى لا تبيدها الحيوانات ولكن لو انقلب ذوق الحيوانات من كره المرارة الى حبا لا تقترض كل نبات من

كانت صفات المكر والخداع والجلين ننمنا ونحن في عصر الظلم لان الظالم لا ترضيه حرية الضمير اما الآن فهذه الصفات واقعة ضد تقدمنا . فنحن لا نذهب الى التاجر المصري لانه لا يعرف لبضائه « شئاً محدداً » وقاعدته انت يلعب على جهلك . الصدق هو صفة بقائية في التاجر مثل القوة الجسدية في الحيوانات القوية والتاجر الخاوع ماله الى الخراب فالادوي تازر في اسواق العالم لان صفاته نقيده وصفاتنا تبيدنا . وهذه الصفات ليست موروثه في بل مكتسبة دنت على ذلك اليابان في تمدنها الخاصر فاصينا الا تملياً منه . فادابنا وعاداتنا واقعة امام التقدم فلما قلنا وما تأخرنا . فلحرباء الميتة التي تمدنها الام المصرية حجاباً لابنها والمرأة التي نسمتها ونحجبها في البيت والجلين الادبي المنتشر بين الشبان — كل هذه العوامل تكفي لقتل الامم

هذه فرانسوا واقفة حول المغرب ولسان حالها يقول انها بعد لها بين افراد الامة وباحترامها للمرأة وبامانة تاجرها ترى شعبها اتقى بحجرات المغرب من الذارية انفسهم . من يسمع ان مولاي حفيظ يعيش في بيوت مشات من الجنوازي وان جريدة « السعادة » حثت في الشهر

الماتني بولادة خمسة اولاد وان الحشيش تحكروه الحكومة ويدخنه الناس كما يدخن التبغ
هنا وان البسكليت يتبر من اعمال الشيطان ويروج الناس راكبه بالطوب من يرى هذا
او غيره ويقول ان المناربة حقيقون ببلادهم او قادرون على حفظها

(٢) طنجة

طنجة اسكندرية المغرب على شكل اصفر واحقر تبعد عن جبل طارق ساعتين بالقرب
البحاري وجزركها من اسهل وأبسط ما رأيت فالجركي المغربي مجهول كفة بسابورت كما يجمل قاضي
طنجة كلمة مادة او قاتون . والشوارع على ضيقها مرصوفة بالحجارة الصغيرة التي يصعب المشي
عليها وهي من عهد عبد العزيز الذي اخذ يتشر المدينة وترك اللب . والبيوت حصرية مبيضة
بالجير وبها طاقات صغيرة لا تكاد تطفئ النور وليس في البلد صارف ولذلك تبعت رائحة
خبيثة من بعض الازقة تصدع الماتني . وقد بنى اليهود جملة بيوت خارج البلد وفي وسطها هي
القصور في جملة . والمغربي يحقر اليهودي كأن يد الله كات شلاء لما خلقته كما قال عمر
الخطيب ولكنه يخدمه . قترى الناس نشام بان يسب بعضهم بعضا الى اليهودية اما اليهودي
نفسه فقد ترك الاعيالات وقبض على الحفائض ولم يغير الفضط منه الا في جعل حديد
فولاذ (صلكا) . فهو ماسك مفتاح الاسواق التجارية اليوم في المغرب وفي الشرق ايضا

وام تجارة طنجة في ايدي الاجانب واليهود الذين يجلبون حاجات البلاد من اوربا
اما التجارة الوطنية فلا تزيد على بيع الفلال ونحوهما من المحصولات الزراعية وقد انحلت
الصناعة الوطنية لشدة نهب عمال المنزن (الحكومة) . رأيت في دار الوالي مقفا مرصعا
بالصوف على غابة من الدقة الهندسية ولكنه قديم وعلمت انه لا يمكن عمل مثل هذا الآن لعدم
وجود الصناع . فكل نافع في هذا الفن اذا علم يد السلطان استحضره وعده من عيده ويحده
ويكده بلا اجرة في سراياته نال البوغ اذن جريمة في المغرب . وتقام في طنجة سوق مرتين في
الاصبرع وهي مثل الاسواق الريفية المصرية

وحياة المغربي عريية سرفة حتى الملققة معدومة من مائدتهم . زرت والي المدينة وهو
شاب في العقد الرابع من عمره قيل لي انه متور زار باريس وبرلين وهو يكن القصة
مكته الرسمي وهي تماثل في بنائها البيوت الرومانية القديمة للاحقارة خارجها . سار بنا الوالي
الى جهو مشطيل مفروضة فيه المراتب على سحابة طويلة وثابتت كوروس الشاي الى ان قنا .

ومن غريب ما لاحظت ان صاحب البيت معنى بظانته وتجميله ولكنه لا يعتني بتطهير
خديه فقد كان يخدمنا ونحن هناك عبد صغير حافي القدمين حاسر الرأس بملابس حقيرة لولا
وجوده في ذلك البيت لظننته من ابناء السبيل المخدمين

وفي المغرب طائفة يقال لهم الصوبون اتباع افريقي عيسى يأكلون اللحم ميتا واحيانا حيا.
وقد رأيت جماعة يهذون باسم الله والشيطان وهم في حالة هستيرية وقيل لي انهم طائفة من
الصوبين

والصيد كثيرون هنا وقد اشدوا الدم العربي باختلاطهم بالعرب . والجارية الحشاء
يتراوح ثمنها بين خمسة جنيهات والسي او الصية اغلى من الرجل او المرأة وهم يخطفونهم من
السودان المصري والفرنسي ولكن لشدة الاحتمالات العسكرية اليوم صار المغاربة يرون
الاكسب لم ان يولدوم عندهم فيجمعون كل ما يتقدرون على جمعه من الجوارى ويجعلونهن
دائما في حالة اجل ليبيما اولادهن وقد قيل لي ان هذه التجارة رابحة

وقد اضرته فسخن الحشيش بصحة الامة ضرراً بليغا فالصي كالرجل لا يقدر على مسك
شيء الا ويده ترمش وقد اصفرت وجوههم حتى تحسبهم من الصينيين والشعور بالقومية
معدوم بالرة فحرب الريف مع الاسبان الآت وقيام مولاي الكبير ليس لها من اهمية عند
ساكني طنجة اكثر من حرب الروس واليابان

والسادة محجبات ولكنهن اذا خرجن لا يلبسن البرافع كالمرأة المصرية بل يلبسن
الملاء على وجوههن . وقد انتشرت هذه العادة بين بعض الاسبان الساكنين في طنجة او
المواني المغربية الاخرى وهم في ذلك كالتبسط يصعون الأكثرية لئلا يشذوا عن بقية السكان
ولكن يختلف الاسباني عن التبسطي في سرعة تحلصه من هذه العادة

وتعصب السكان بالغ اشد فلا يبشي الاوربي الا واللغات نساقت غيب وهو لا يلتفت
اليها لانه اعتادها . وليس الجزمة الافرنجية بدلا من البلنط يده كقرا وقد طرد مولاي عبد
العزيز من العرش لمثل هذا السبب البسيط . وكانت فاس مقر استق مسيحي في القرن الثالث
عشر لكن العصب فرض المسيحيين منها كما فرض المسلمين من اسبانيا . هكذا يقتل بعضنا بعضا
لاجل عتائدهم يختلف في نفسها

وحب السن شديد في المغربي وهو يتفخر به كأنه دليل الجاه والثروة ترى التحيف منهم
يلبس رداء واسعاً وحزاماً عريضاً لكي يظهر مديته

(٣) اللغة والتعليم

الشرق مشهور بالجهود وقد اضره مجوده كثيراً. ولكنه افاده في اللغة فالعربية اليوم افوى وانفع جامعة بين الامم العربية فلو ترجم المخاربة القرآن بلهجتهم الخاصة او كتبوا بها بدلاً من العربية الفصحى لوجدنا انفسنا منفصلين عنهم الآن كما انفصل الفرنسي عن الانجليزي ولكن القرآن حفظ العربية قترى المراتد التي نشر في بغداد نقراً وتهم في طبعه بلا شعور بفرابة في الاشياء

لما نزلت عليه شعرت بالفرق بين اللهجة المصرية والمغربية فاذا تكلم مغربان من العوام تشعر كأن الكلمات خارجة من حلقهما ويسخيل أن تفهم أكثر من عشرة في المائة من اقوالهم فقد كنت افضل التكلم بالفرنسية او الانجليزية مع دليلي على التكلم بالعربية ولكني كنت اهتم كل ما يقال لي اذا تكلمت مع فراء المراتد او المتعلمين نوعاً - واسماء الاشياء تختلف احياناً من اسماها عندنا واليحد شيئاً منها

الحلم الحجام الحلاق . شادور سفير . شمبريه برنيطة وهي اسبانية . متولة كرنبي . تشار فريية . مباط حذاء ازبلغة بلغة مصر

وقد قيل لي ان المدارس الابتدائية منتشرة في البلاد وتعلمها قديم والرغبة في العلم ثابتة وقوية في الامة وانتم ان عدد التراء في المغرب ضعفاً بحدود في مصر فقد يكون الفلاح عارفاً بالقراءة وكذا خدام اللوكالدة او غيرها من العامة - وخطوطهم مثل خطوط القرن السابع عشر ولذلك يصعب قراءتها على من لم يعمدها وقد جلب حضرة وديع انندي كرم صاحب جريدة السعادة - وهي الجريدة الوحيدة العربية في المغرب - حروفاً عربية من التي تشمل في مصر وسورية وميتوحد بواسطتها الخط العربي

والظاهر ان ليس في البلاد حركة اصلاحية مطلقاً والسبب في ذلك عدم شعور الاهالي بتأخرهم فالنصري وان كان مشتركاً مع المغربي في تأخره فان المراتد جعله يشعر بتأخره ففي مصر تشعر الامة بجهل الفلاح واستعباد المرأة وتعرف ان لاجية لها بين الامم المتقدمة الا بني هاتين المنطين اما في المغرب فلا شيء من ذلك . قرأت منذ يومين كتاباً من صديق الى صديقه فوجدت ثلاثة ارباعه في مدح الله بلغة ركيكة وتعايير عربية قديمة مما يدل على ان الكتائب تربي تربية الكتاب فقط . والمخزون (الحكومة) غير شاعر بالحاجة الى المدارس الحديثة مطلقاً

وملاهي المغاربة الغناء فقط والالخان بين المنسرية والعربية واحسن اغانيهم يذكرون
ليه فقدان الاندلس واسترجاعها كقولهم

يا اسفي على ما مضى وايام الفرح والرضى

زمانك لتد اقبل بايام هنية

يا فرقة ديار الاندلس مهلا على

مضيا ايام الملاح في غرناطة بالانشراح

ما بين الورد والافاح مضيا عشي

وقولهم

ولم نجد في طنجة كلها مكتبة عربية وللترالة الفرنسية هنا جريدة يومية اما كل المغاربة
الذين يملكون ثمانية ملايين فليس لهم غير جريدة السعادة التي تصدر مرتين في الاسبوع
وصاحبها صوري

قال محيي الدين المراكشي في كتابه تاريخ الامدلس «كان بالربض الشرقي من
قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكنين للصحاف بالخط الكوفي هذا في ناحية من نواحيها
فكيف بجميع جبهاتها» وسكان المغرب اليوم وهم من نسل اولئك القوم يتعلم النساء
وقد سمعت امس انت الرجل يهذي ابنته احيانا الى بعض الموظفين على سبيل الوشوة
لتخدم وتتعبد

المرأة الانجليزية تزاحم الرجال في اعمالهم اما المغاربة فقد اجبروا بانفسهم على
مزاحمة الجزائري

(٤) الحكومة

المغرب مقسوم الى ولايات على كل منها وال ينتخبه السلطان وهو في المغرب يعتبر خليفة
السلطان وينتخب له في الجوامع اما في الجزائر وتونس فالخليفة سلطان السنين . وسلطان
المغرب مطلق التصرف بشعبه في ادارته بحملة وزراء . فالوزير الكبير للامور الداخلية
ووزير البحرية للخارجية ثم وزير الحرب ثم وزير الشكايات للظالمين سيف القضاء ثم امين
الامانة لمالية ثم امين المصروفات ثم امين السبل اي الايرادات ثم امين الحساب اي تحقيق
الوارد والتصريف ثم حاجب القصر السلطاني ثم المشوار الذي يقدم للسلطان كل من يرغب
في ان يراه ثم نائب السلطان في طنجة لمقابلة القراء ومن مجموع هذه الوزراء يتكون المغرب
او الحكومة المغربية

اما المال في الولاية فهم الوالي وهو رأس الهيئة التنفيذية في الولاية وينوب عنه سيف

غيايه او في المسائل الصغرى خليفته ثم القاضي وهو الذي يحكم في مسائل المدينة والشخصية حسب الشريعة الاسلامية . وما عرفته ان القائل لا يقتل وانما يحبس مدة طويلة او قصيرة حسب قدرته على دفع شيء للمخزن ثم المحاسب ووظيفته تحديد اثمان المبيعات والتفتيش على الموازين والمكاييل ثم امين المستفاد وهو الذي يقبض ويسلم اموال المخزن

ولما كانت العدالة في المغرب معناها الرشوة احتج كثير من اليهود والوطنيين بالفتنليات الاجنبية حتى هربوا من فوضى القضاء المغربي . ولكن بواسطة مؤتمر الجزيرة الفت لجنة من الاجانب والوطنيين الآن لجمع الضرائب وسجلت مثالها في الموائى - الاخرى . نهاشي . من الامل لتعيين الادارة . والبوليس المغربي من عهد مولاي عبدالعزى وقد وكلت الدول فرنسا بتنظيمه

ويظهر ان استقلال البلاد مضمون ودخول فرنسا اليها من المشيكلات لان غيرة الامم والاوروبية على املاك المغرب شديدة ولا يمكن تحديد نفوذ لاسبانيا او فرنسا . هذا لو خفضنا النظر عن المانيا التي لا يمكن اهلها الآن . والموظفون الوطنيون يعرفون ذلك وهذا يمشهم دائماً على البقاء في خمولم القديم . وليس امر على الشرقي المنور من ان يرى خصب البلاد وغناها ثم افعال الحكومة وظلها الى درجة يستهان معها اي احتلال اجنبي . فيواسطة الظلم المحطت القرية وماتت الصناعة الوطنية وامست البلاد المغربية اكواماً من العشى لا يرضى اودنها بتسكين دوايب فيها . والحكومة اذا رأت وطنياً غنياً تشتمل كل وسيلة لابتزاز ماله حتى يحمي بتنصبة اجنبية او يرمى في السجن

وقد سمعت ان مولاي حفيظ يرغب في استحضار بعض الشبان السوريين والمصريين من الذين تعلموا ليو مسا مدارس حديثة في المغرب ولكني استبعد ذلك ولا يمكن البدء في هذه الاعمال الا باعداد شبه رأي عام في الامة يرغب في المدنية وهذا لا يكون الا باشاء الصحافة التي تنبه المغربي من خموله

وهنا فرصة للمصري او السوري الراغب في تقديم الام العربية

(٥) خلاصة تاريخ المغرب

اختم هذه المقالة بايراد خلاصة تاريخ المغرب من الكتب الفرنسية ولا اظن ان سيغ العربية تاريخاً كاملاً للمغرب غير الاستقصاء للسلاوي فالغاربة — ونسبهم الصحافة المصرية احياناً بالمراكيين وهو خطأ لان مراكش مدينة

من مدن المغرب فقط - يسكنون بلادهم بالمغرب الأقصى وتقام من البربر والثلث الباقي من العرب - ووجه البربري بين الرومي والفرنسوي مع سحرة قليلة وبعض هؤلاء البربر ما زال يتكلم لغته القديمة - واليهود يملكون نحو مائة الف اما الاوريون فيملكون نحو عشرة آلاف منهم سبعة آلاف امباني

والمغرب دخل في حوزة السلطنة الرومانية ككل البلاد التي على البحر المتوسط وما زالت بعض آثار الرومان ليه الى الآن

وسنة ٤٢٩ م دخلته قبائل الفندل واستأثرت بالسلطة

وسنة ٥٣٣ م دخل بليار قائد يوستينانس امبراطور القسطنطينية المغرب وضعه الى السلطنة البيزنطية

وسنة ٦٣٠ م دخل المغرب قبائل الفينيقيون الاسبانية واستولوا على طنجة وضعفوا القوة البيزنطية

وسنة ٦٨١ م ابتداء الفتح العربي على يد الامويين الذين ارسلوا عقبة بن نافع حاكم تونس فاستولى على المغرب وتابع بعده الحكام

وسنة ٧٨٨ م حرب الامام ادريس الى المغرب وامس دولة الادارسة التي حكمت الى سنة ٩٨٥ م وهم يتسبون الى الامام علي بن ابي طالب

وسنة ٩٩١ م استولت زفانة على المغرب الأقصى وهي الامر ط الى سنة ١٠٦٩ م وهاتان الدولتان زفانة والادارسة عريشان

ثم تبع ذلك ثلاث دول بربرية الاولى دولة المرابطين حكمت من سنة ١٠٥٣ م الى سنة ١١٤٧ م ومنها يوسف بن تاشفين المشهور

الثانية دولة الموحدين حكمت من سنة ١١٣٠ م الى ١٢٦٩ م ويقال انها عربية

الثالثة دولة بني مرين حكمت من سنة ١٢٦٩ م الى ١٥٥٠ م

وهنا خرجت اخلافة من ايدي البربر الى العرب فاستأثر بالسلطة السعديون الشرفاء من ١٥٥٠ الى ١٦٦٠

وسنة ١٦٦٠ تغلب العلويون وهم عرب ايضا على السعديين وما زالت اخلافة سيفه يدهم للآن